

(١)

أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها

تقدم فى المدخل لهذه المواجهة أن المستشرقين وأساتذتهم المبشرين اتخذوا من تعدد زوجات النبى ﷺ وسيلة لوصفه عليه السلام بأنه كان رجلاً شهوانياً لا همَّ له إلا إشباع غريزته الجنسية، والتهالك وراء الاستمتاع بالنساء، ولما كانت السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - أولى زوجاته، ولم يتزوج الرسول عليها ثانية ولا ثالثة وهى فى عصمته، بل حدث التعدد بعد وفاتها، لما كان الأمر كذلك فقد شعروا بأن اتهامهم إياه بالشهوانية غير مستساغ، فراحوا يبحثون عن ثغرة أخرى يضمنونها إلى معرفة «الشهوانية» المدعاة، وهى الطمع فى مالها وثروتها؛ لأنها كانت من أثرياء قريش.

والتهمتان باطلتان:

أما تهمة الشهوانية، فيكفى فى بطلانها فارق السن بين النبى - عليه السلام - وبين السيدة خديجة - رضى الله عنها - فقد كانت فى الأربعين من عمرها، وهو شاب مكتمل الحيوية فى الخامسة

والعشرين من عمره، فهو بمنزلة الابن لها، وهى بمنزلة الأم له، وتفاوت السن بهذه الدرجة الكبيرة ليس مطلباً للرجال فى النساء والعكس هو الصحيح، ثم إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - مع كبر سنها هذا كانت ثيباً ولم تكن بكرأ، بل كانت زوجاً لرجلين من قبله، هما عتيق بن عائذ المخزومى، وأبو هالة هند بن زرارة التميمى، وكلاهما من سادات العرب وأشرفها، فهل يكون الرجل الشهوانى جاهلاً بأسباب المتع إلى هذا الحد؟ وقد كان فى وسعه أن يتزوج من يشاء من فتيات قومه النضرات وهن فى بصاضة الشباب وسحره ومرحه، وخفة روحه.

إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - حتى ولو كانت عانساً، وهى فى هذه السن لانقطعت عنها مطامح الرجال الذين يسعون وراء إشباع الغريزة الجنسية من مصادرها المحببة إلى النفوس، وكان أمام محمد ﷺ مئات الفتيات الغيرات اللاتى يتمنى أولياؤهن أن يكون محمد ﷺ صهراً لهم، لما كان له فيهم من حسن السيرة، وكرامة الأخلاق، وأدب النفس، وشرف الأرومة، وقد أهلت هذه الصفات لأن يحمل بينهم لقباً لم يحمله منهم أحد قبله، إنه «الصادق الأمين»، والذى أطلق عليه هذا اللقب النبيل هم قومه، فما أجمل هذا الوصف؟ وما أكرم ذلك الموصوف؟!

ويضاف إلى هاتين الحقيقتين: كبر السن، والثبوة حقيقة ثالثة، من شأنها أن تصرف شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره عن

الاقتران بالسيدة خديجة لو كانت الشهوة هى التى جمعت بين محمد - عليه السلام - وبين خديجة - رضى الله عنها .

فخديجة بعد موت زوجها الأولين لم تكن متفرغة لحياة زوجية
ثالثة؛ لأنها كانت أمّاً لاثنتين من ثمرة زواجها السابق، فقد أنجبت
من زوجها الأول عتيق بن عائذ المخزومى بنتاً بلغت سن الزواج
حين تمت خطبتها إلى محمد بن عبد الله، وأنجبت من زوجها
الثانى أبى هالة ولداً كان فى سن الطفولة فى ذلك الوقت .

والرجل الشهوانى إنما يبحث عن فتاة غريرة تتفرغ له هى
ويتفرغ هو لها، تلك هى مقومات اللهو عند طلاب الملذات وعبيد
الشهوات .

فكيف يستقيم مع هذا أن يصف خصوم الإسلام من المبشرين
والمستشرقين والملحدّين أن زواج محمد ﷺ من خديجة كان
الدافع إليه هو شهوة الجسد؟ أما يستحى هؤلاء من مجرد خطور
هذا على «بالهم»، فضلاً عن إعلانه، والتحمس له، والإصرار عليه؟
ألى هذا الحد من الجهل والجهالة يحملهم حقدهم وبغضهم فيرون
النور ظلاماً، واليباض سواداً؟!

إن أكذوبة الأكاذيب ترديد هذه التهمة، وهى تهمة يردها العقل
والواقع والفطرة القويمة، قبل أن يردها النقل، إن الآفات النفسية
والأهواء المريضة وكراهيتهم للحق هى وراء ما يقولون، وما

أصدق ما قال الشاعر فى أمثالهم:

قد تُنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ

ويُنكر الفمُ طعمَ الماء من سَقَمٍ

لكن نزاهة محمد ﷺ ونبل سلوكه، وطهارة سيرته لن يضرها
هذا القول مهما احتشدوا له وحشدوا، والأمر كما قال الشاعر
الحكيم:

هل يضر البحر أمسى زائحاً

أن رمى فيه غلام بحجر؟

الطمع فى المال:

أما تهمة الطمع فى مال خديجة - رضى الله عنها - فهي
أوهى من بيت العنكبوت، لأن محمداً ﷺ عُرِفَ فى جميع
مراحل حياته بالزهد فى الدنيا، منذ صباه، حتى لقى ربه، ومع
هذا الزهد كان كساباً للمال للإنفاق على نفسه، حتى لا يكون
عالة على من سواه.

وقد بدأ بالعمل، وهو صغير، بعد وفاة جده عبد المطلب،
الذى أوصى عند موته ابنه أبا طالب أن يرعى ابن أخيه عبد الله -
محمداً عليه السلام - وكان أبو طالب مُقلاً من المال، مع كثرة
العيال، ولما شب محمد عن الطوق، اشتغل برعى الغنم ليساعد
عمه على نفقة عياله، فكان يجلب من المال ما يدخل السرور على

عمه وأهل بيته، وكان إذا وضع الطعام لا يسرع إلى الجلوس مع أفراد أسرة عمه، كما كان أسرعهم رفعاً ليده عن الطعام، ولما رأى عمه أن بنيه يلتهمون الطعام ومحمداً يبطئ في تناوله أراد أن يعزل له طعامه حتى لا يغلبوه، ففرض محمد هذه الفكرة، وهو صبي دون البلوغ، ولكن أخلاق النبوة ولدت معه يوم ولد، ونمت كلما نمت، وقويت فيه واشتد ظهورها كلما قوى هو واشتد ظهوره.

وبعد زواجه بالسيدة خديجة وهى أثرى أثرياء أهل مكة حتى قال كُتَّابُ السيرة: إن بضاعتها التى كانت تُحْمَلُ فى رحلتى الشتاء والصيف كانت تعادل بضاعة كل أهل مكة، وما كان يُردُّ منها شئ، بل كانت تباع كلها، وتحقق لها أرباحاً عظيمة، وبخاصة بعد زواج محمد المبارك منها، والعمل لها فى تجارتها، وعلى رغم هذا الثراء الواسع لزوجه فإن محمداً لم تُلهِهْ ملذات الدنيا فيغدو فيها ويروح، بل كان يقضى الليالى ذوات العدد فى غار حراء يتأمل فى ملكوت السموات والأرض، خالياً إلى ربه، وما كان يحمل معه من الطعام إلا الخبز الجاف الصالح للبقاء دون أن يتعفن فإذا نفذ طعامه عاد فقضى وقتاً فى بيته مع زوجته وأولاده ثم رجع إلى غاره ليواصل التأمل وتركية القلب والنفس، فلو كان زواجه من خديجة طمعاً فى شهوة أو مال لما فارق البيت لحظة، إلا أن يخرج للتنزه والاسترواح إلى الطائف ذات الهواء العليل، أو الشام ذات المباهج والماء الجارى والحدائق الفيحاء؟!

لكنه لم يفعل من ذلك شيئاً، لأنه لم يخلق للملذات الدنيا، ولا ملذات الدنيا خلقت له .

إن القدر الإلهي يُعده ليكون قائد الإنسانية جميعاً حتى تلقى ربها، بعد أن يُبين لها محمد ﷺ ما أنزله الله إليها، ثم تنقطع - برسالته - رسالات السماء إلى يوم الدين .

من الذى طلب الآخر؟!

ومما يدحض فرية خصوم الإسلام الإجابة على هذا السؤال:
من الذى طلب الآخر؟!

أحمد هو الذى خطب خديجة كما يخطب الذكور الإناث فى كل زمان ومكان؟ أم أن الذى خطب محمداً هو خديجة على خلاف المألوف فى دنيا الناس؟!

إن الرواية الأمانة والخبر الصادق الذى لم يُعرف له مخالف أن السيدة خديجة - رضى الله عنها - هى التى خطبت محمداً ﷺ، لا أن محمداً هو الذى خطبها .

فقد عرفت خديجة محمداً صادقاً أميناً كما أطلق عليه قومه ثم لمست هذا الصدق وتلك الأمانة رؤية عين، ورؤيا قلب حين أوكلت إليه مهمة الاتجار فى مالها فرأت من الصدق عجباً، ومن الأمانة كنزاً، وتحرك قلبها نحو هذا المثل العالى فى روعة الأخلاق، ونبل السلوك، وفى لحظة ما دخلت عليها صديقتها

نفيسة ابنة منية، فرأتها فى ضيق وحيرة، سرعان ما عرفت نفيسة أسبابهما، فهرولت من ساعتها إلى محمد، وحدثته فى شئون الزواج، وأفصححت له عما لمستته من السيدة الطاهرة خديجة، ولم يمانع محمد فى الزواج منها إن كان ذلك رغبة لها.

ثم اجتمع قومها وقومه، وأعلنت الخطبة، وتم الزواج على بركة من الله ورضوان.

ولم يكن ميل خديجة إليه تلبية لغرائز جنسية، بل كان حباً لتلك النفس الزكية، والقلب الطاهر، والسيرة الحميدة دليل ذلك أن السيدة خديجة بعد موت زوجها الثانى تقدم لها رجال أكفاء من سادات قريش يخطبونها الواحد تلو الآخر، فما قبلت واحداً منهم، لا انتظاراً منها للتزوج من محمد - عليه السلام - ولكن لأنها زهدت فى الحياة الزوجية بعد فجيعتها فيها مرتين، وآثرت التفرغ لرعاية ابنتها وولدها من عتيق وأبى هالة.

وفى هذا تبرئة بعد تبرئة لمحمد من مغامز المبشرين من أمثال مسكيم رودنسون، وتبرئة للسيدة خديجة من التهالك وراء متع الجسد، التى تمارس فى الغرب الآن بكل وسيلة من الوسائل الخسيسة، ثم يتعقب بعض أبنائها سيرة الأظهار ليدنسوها.

بل هى حكمة الحكيم:

هؤلاء المبشرون والمستشرقون لو كانوا طلاب حق لردعهم عما

قالوا ثمرة الزواج النبوى من خديجة - رضى الله عنها - ثم موقف الرسول منها بعد وفاتها - رضى الله عنها .

لقد كان هذا الزواج هو من حكمة الله الحكيم، الذى أعدَّ محمداً للقيام بمهام أعظم رسالة إلهية يبلغها رسول للناس جميعاً، كما أعد خديجة لتكون أول مؤمنة بتلك الرسالة، وأول ناصر لها من البشر، وأن يكون بيتها مهبطاً للوحى من السماء إلى الأرض حاملاً مشاعل النور الأبدى فى ربوع الكون حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأن تكون أمّاً لولدين وأربع بنات من سلالة النبوة الطاهرة .

أول من علم بالسر:

كانت خديجة أول من علم بالسر الإلهى بعد محمد ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل بقوله تعالى لأول مرة ينزل فيها جبريل بوحي جديد بعد رسالة عيسى عبد الله ورسوله :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ﴾ .

كان لتزول الوحي على النبى لأول مرة رهبة وشدة، ثم ما وجد عليه السلام من يُثَبِّتُهُ ويهدئ روعه فى تلك اللحظة القاسية إلا خديجة - رضى الله تعالى عنها - وكان مما قالت له : «الله

يرعانا يا أبا القاسم، أبشريا ابن عم وأثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل - أى تجبر الضعيف - وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إنها - وذى الجلال والإكرام - لأعلى وأعظم نصيحة تسديها زوجة مؤمنة لزوجها فى ساعة الشدة والعسر، ولو لم يكن من ثمرات هذا الزواج إلا هذا الموقف العظيم، لكان أعظم زواج يشهده تاريخ الإنسانية كلها.

ثم وضعت ثروتها فى خدمة الدعوة وكفاها شرفاً وعلو رتبة عند الله أنها كانت أول من آمن بالإسلام لا من النساء فحسب، بل منهن ومن الرجال، فهى أسبق السابقين إلى الإسلام على الإطلاق.

وقد أنجب الله لرسوله كل أولاده - ما عدا إبراهيم - من خديجة وهم: «ولدان: القاسم وعبد الله، وأربع بنات: زينب، ورقية وأم كلثوم، وفاطمة - رضى الله عنهن وعنهن».

إن مسكيم «رودنسون» وأسلافه لو كانوا طلاب حق - بحق - لأكبروا هذا الزواج، ولعدوه من روائع الوقائع الإنسانية بدلاً من هذا التهافت السخيف، ولكن الحقد أعمى قلوبهم واغتال عقولهم، وما هم بضارين به من أحد إلا أنفسمهم فهم فى غيهم وطغيانهم يعمهون.

موقفه بعد وفاتها:

لكل عظيم دور فى هذه الحياة، فإذا أدَّى دوره عاد إلى ربه ولو تصور الناس أن الدنيا أحوج ما تكون إليه، وقد أدَّت السيدة خديجة - رضى الله عنها - دورها فى الحياة فى خدمة الدعوة طوال عشر سنوات من بدء الوحي وكانت نعم الوزير والنصير لصاحب الرسالة ﷺ، شهدت معه مولد الإسلام، واحتضنته معه وليداً، وغذته بحكمتها وصبرها حتى شب عن الطوق وترعرع، وقبل الهجرة بثلاث سنوات اكتمل دورها فى نصرة الدعوة، فدعاها الرفيق الأعلى ليجزيها أحسن ما عملت، دعاها إليه وماتزال أمام الدعوة عقبات كثود، ولكن وجود الله يغنى عن كل وجود بعد تأدية أصحاب الأدوار أدوارهم.

وفى السنة نفسها مات عم النبي أبو طالب، وقد كان سنداً قوياً لابن أخيه ضد قومه، وإن ظل على عقيدتهم حتى مات، وشعر النبي ﷺ بفراغ أرضى هائل بعد موتها واشتد حزنه حتى سُمي ذلك العام عام الحزن، وقد ظل النبي - عليه السلام - مخلصاً وفيماً لحظه الأول من أمهات المؤمنين، لا يسلو عنها لحظة، ولا يفكر فى الزواج بعدها من النساء، ورضى بقضاء الله وقدره مع مواصلة الجهاد فى سبيل الله والقيام بأعباء الرسالة وما أشقها، لكن عظماء الآخرة لا تخور قواهم، ولا تفتر عزائمهم مهما لقوا من صعاب، ولو طارت أرواحهم شعاعاً فى سبيل الحق.

فهل كان محمد ﷺ لو كان شهوانياً ما تزوج خديجة إلا من أجل جمالها ومالها؟! هل كان يحزن ذلك الحزن وقد ذهبت صاحبة المال والجمال؟! أم كان سيسرع فى التزوج من غيرها، ولأنساء اللهو ما كان بينه وبين خديجة؟! هلا سأل هؤلاء الحقدة أنفسهم هذا السؤال؟! إن عشاق المتعة لا يباليون بمن ذهب، وإنما يسرعون فى البحث عن بدائل أخرى يجدون فيها من المتعة واللهو ما فاتهم بفراق من فارقهم، وليس لديهم ذرة من الوفاء نحو نديم الأمل.

استمرار الوفاء:

وقد يندر لدى بعض عبيد الشهوة أن يشعروا بفراغ طارئ إذا فقدوا «خديجاتهم» فتخيم عليهم موجة من الأسى، ولكن لا من أجل الوفاء، بل بكاء على حظوظهم الدنيئة، التى ولَّتْ، أما أن يذرفوا دموع وفاء فهذا محال، وأما أن يستمر أساهم على من فارقهم فهذا محال آخر، فإن غانية واحدة تمحو من ذاكرتهم ما كان بالأمل القريب.

أما محمد العفيف النزيه، فقد ظل وفياً لخديجة طوال حياته بعدها، وفى عصمته عدد من الزوجات فى بعضهن ما ليس فى خديجة من الشباب والجمال وسحر الأنوثة، ولنسمع إلى أم المؤمنين السيدة عائشة ابنة الصديق أبى بكر - رضى الله عنهما - وهى تقول:

«ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبی یكثر ذكرها وربما یذبج الشاة ثم یبعثها فی صدیقات خدیجة، وربما قلت له: كأن لم یكن فی الدنیا امرأة إلا خدیجة؟ فیقول: إنها كانت وكانت، وكان لى منها ولد».

وأكثر من ذكر خدیجة يوماً فقالت السیدة عائشة: هل كانت إلا عجوزاً فی غابر الأزمان؟! وقد أبدلك الله خیراً منها؟ - یعنی أبدله الله عائشة وهى خیرٌ من خدیجة - فغضب ﷺ من هذه الكلمة وقال لها:

«لا والله ما أبدلنى الله خیراً منها، لقد آمنت بى حین كفر الناس، وصدقتنى حین كذبنى الناس، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غیرها من النساء»، قالت عائشة: «فلم أعد أذكر خدیجة بسوء بعد هذا أبداً».

فهل هذه أخلاق عشاق وعبید شهوة؟ أم أخلاق أوفياء مخلصین یعشقون المعانى النبيلة، والمثل العليا؟ ولا یقیمون وزناً لمتع الجسد وملذات الدنیا الزائلة، إن الحق والحسد، والعلل النفسیة القاتلة هى التى تحمل هؤلاء المبشرین والمستشرقین والیهود والملاحدین على أن یروجوا هذه الشائعات لیشوهوا حقائق الإسلام والله متم نوره ولو كره الكافرون.

* * *